كيف تبلور الفكر العربي في علم الطب ؟

للدكتور شوكت الشطي

ان العثمانيين امراء اتراك تسموا باسم مؤسس سلالتهم عثمان الاول فتولوا السلطة والسلطان ما بين 1326 — 1516 م في قسم من بلاد اوربا وكثير من بلاد آسيا وافريقية وجميع البلاد العربية بمشرقها ومغربها ثم تولوا الخلافة على المسلمين في مختلف الديار حتى سنة 1916 . وقد اجلوا اثر انتهاء الحرب العالمية الاولى عن البلاد العربية . وقد حكم العثمانيون في جملة ما حكموا البلاد العربية مدة تقرب من ستة قرون . فكيف كان حال الطب في تلك الحقبة من الزمن .

ويحسن بهذه المناسبة ان نبين اختلاف الحال بين القرن التاسع عشر والقرون التي سبقته . فقد احتل العثمانيون البلاد العربية وكان الطب العالمي علما عربيا يفاخر به العرب وتعج بلادهم بملاجئه ومشافيه ويفخر الغرب بنقله عنهم واقتباسه منهم والتتلمذ عليهم .

وقد رافق احتلال العثمانيين للبلاد العربية بدء انحطاط فيها حتى عادت سيرتها العلمية منبتة من قوة التسلسل ومنبعثة من تاريخها القديم فلم ينبغ في القرن الخامس عشر من بلاد الشام رجل احدث عملا علميا عظيما (1) .

استمر الانحطاط في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فلا جديد ولا تجديد الا النظر في قضايا قديمة لاكتها الالسن وقدمت في صددها آراء تستند الى نقل ونصوص لا الى بحث وفحوص ، فلا ابداع ولا اختراع والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية . وكان يحكم البلاد العربية اقطاعيون همهم جمع ضريبة تفرضها الحكومة المركزية ولكن على الرغم من الانحطاط المحسوس في حركة العقول فقد كان في بلاد الشام علماء ممتازون وحتى عالمات نابغات (2) .

(1) ذكر المقدسي ان اهل الدولة العثمانية كانوا لا يولون المدارس في الشام احدا من ابناء العرب زاعمين ان العلماء في العرب كثيرون وانهم ان ولوا عربيا كثر الطالبون وعجزوا عن ارضائهم وحصر الترك عنايتهم بالاستانة .

(2) بينهن عائشة الباعونية عاشت في الشام وتوفيت في القاهرة سنة 1516 م . وفاطمة بنت عبد القادر قريمزان عاشت بين سنة 1477 و 1558 م في حلب واليها انتهت الرياسة العلمية في زمنها .

لقد برز فى العلوم والفنون بضعة افراد فى بلاد الشام وعلى راسهم داود الانطاكي وهو رحالة ضرير شغف بقراءة كتب الطب والتاليف فيها ، اشتهر طبه وكتابه « تذكرة اولي الالباب والجامع للعجب العجاب » وهو مختصر جامع لفنون الطب ، ولابد لنا من التوقف عند هذا المؤلف وكتابه الذى ظل المرجع المعول عليه حتى طلائع النهضة الطبية فى القرن التاسع عشر .

ولد داود فى انطاكية سنة 950 هـ — 1544 م وتوفى سنة 1008 هـ — 1599 م. جاء عنه بقلم مؤرخ عصره شهاب الدين محمود الخفاجي فىكتابه « ريحانة الالباب وزهرة الحياة الدنيا » ما ننقله بالحرفالواحد كنموذج عن ادب ذلك العصر ولغته : « الرئيس داود الحكيم ضرير ، بالفضل بصير ، اذا جس نبضا لتشخيص مرض عرض ، اظهر من أعراض الجواهر كل غرض ، يفتن الاسماع والابصار ويطرب بجس النبض ما لا يطربه جس الاوتار ، له فى كل علم ، سهم مصيب ، كثر كلام الناس فى اعتقاده ، ونقل عنه رشح قطرات من خفي الحاده ثم لما كثر اللغط فيه ارتحل للبيت العتيق ، فطافت به المنية من كل فج عميق فقضى نحبه ولقي ربه » (1) .

وقد طبعت تذكرته هذه لاول مرة فى سنة 1838 م ، 1254 هـ ، ثم اعيد طبعها بضع مرات وعلق عليها الكثيرون (2)

ولقد كان القرن الثامن عشر تتمة ما سبقه من ضعف فى بطء الحركة العلمية فاقتصر الطب على وجود متطببين لا يتجاوز مدى معارفهم حد بعض الحقائق الاساسية التي كانوا يتلقونها شفاهيا وكان اكثرها تقليديا وتوسع بعض منهم فى معلوماته الطبية نقرا الكتب القديمة او كتاب داوود الانطاكي . ولم يكن فى ذلك العهد من يستحق ان يطلق عليه لقب طبيب حتى فى المدن الكبرى، اما فى المدن الصغرى والقرى فكان يتعاطى المهنة الطبية اشخاص توارثوها عن الآباء والاجداد يستمدون فيها بعض التجارب والادوية وكان من بينهم نسوة يصفن العقاقير ويداوين العيون (3) وقد وجد عدا اولئك ممارسون جوالون ، كان لبعضهم خبرة فى خلع الاسنان واجراء عملية الحصاة والساد (كاتاراكت) . وكان يعول فى الجراحة على الحلاقين الذين كانوا يتعاطون ايضا الحجامة والفصد وكان للطب البدوي (4) الذي يعتمد على الكي والادوية النباتية شأن عظيم وكانت هنالك وصفات يعتمدها الناس فى المدن والقرى منها معالجة

---

(1) وله تآليف منها شرح قصيدة ابن سينا فىالروح وكتاب « الدرة المنتخبة ، فيما صح من الادوية المجربة» و كتاب «نزهة الاذهان، فىاصلاح الابدان» ومنهاالتذكرة الصغرى والتذكرة الكبرى فى الطب وهذا الكتاب هو اشهر مؤلفات الانطاكي واكثرها ذيوعاذكر فيه ما روي فى كتب اطباء اليونان والعرب مع الزيادة والتعديل ومسايرة طرق المعالجة عند اهلزمانه . يروى الباحث فى التذكرة معلومات طبية ذات فائدة كبرى والى جانبها معلومات اخرى مستمدة منروح عصره وبعض مجرياتهم الخرافية سمجة ومستهجنة لا يسع القارىء الا التعجب من اثباتها الىجانب الآراء الصحيحة ولا شك ان لذلك اسبابا قد يكون من بينها الانسجام والتجاوب مع ما يستشفيبه الناس حينها من وسائل نفسانية .

(2) وكان من اكثر الباحثين فى التذكرة والمتعمقينبموضوعاتها الدكتور رمزى مفتاح الذى بعث التذكرة بعثا جديدا بكتابه النفيس المسمى « احياء التذكرة »فجعله قنطرة بديعة تصل بين الطب القديم والطب الحديث .

(3) اشتهرت من بينهن فى بغداد فرحة خاتونفاستشفى على يديها عدد كبير من سكان هذا البلد .

(4) ما من احد عرفاهل البادية الا راى عندهمن اساليب المعالجة ما يحلو ذكره من فائدة ، يعالج البدو الجروح النازفة بصب مغلى السمن عليها ثميغمسون قطنة فى السمن البارد ويضعونها على الجرح الى ان يبرأ واذا كان الجرح صغيرا رشوا عليه الملح او بن القهوة ، اما اذا كان الجرح كبيرا وواقعا فى طرف وكان النزف غزيرا استعانوا علىارقائه بربط العضو واذا دخلت رصاصة فى يد احدهم او رجله ولم يستطع طبيبهم اخراجها بسكين او مسلةحفر حفرة فى الارض واشعل فيها نارا شديدة ثم اخرج منها النار واضجع المصاب فى وضع يلاصقبه العضو الذى فيه الرصاص تراب الحفرة فيخرج الدم من الجرح ثم تخرج الرصاصة ثم يصب الدبسأو الزيت على الجرح ليلتئم .

الكلب بكي محل العضة وبالثوم اكلا وضمادا وبالحلتيت شربا وضمادا ويعزل المعضوض اربعين يوما بشرط ان لا ينظر الماء ولا اللون الاحمر ومنها معالجة الزهرى بتبخير المريض بالزئبق مع بعض عقاقير منها جوز السرور ومنها علاج الرمد بقطرة من تفاح وعلاج السرطان بالكي بالحديد المحمى ومعالجة الرثية بالضرب بورق القريص او بلسع النحل فى محل الالم ومعالجة داء الحفر بالليمون الحامض ومعالجة الديدان ببزر القرع وبمغلى قشر شجر الرمان شربا وبأكل حب الآس والترمس والكرنب ومعالجة لدغ الثعبان والعقرب بتدمية مكان العضة ومصه مع الربط فوق مكان اللدغ ثم الكي بالنار على محل اللدغ ومعالجة البرداء الحادة بمغلى اوراق الصفصاف والمزمنة بأكل الطحال وبالاخص طحال القنفذ ومعالجة الجذرى بمنقوع قشور الجذري فى حليب مرضعة لبنت ومعالجة الحصبة بمغلى النوفر والعناب والزهورات وبالدبس العنبي ومعالجة السعال الديكى برب السوس وشراب الرمان وبالعسل ومغلى التين أو منقوعه المائي وبشرب ما يرشح فى حفرة تصنع فى قرص اللفت وتملأ بالسكر (1) .

ولقد بدات فى غرة القرن التاسع عشر تباشير العلوم الرياضية والطبيعية تقبل على البلاد العربية خاصة مصر وسوريا وذلك على اثر غزوة نابليون لهما قريب القرن التاسع عشر ما بين 1798 و 1799 فقد تركت تلك الغزوة اثرا نبه البلاد العربية الى قيمة العلم ذلك لان نابليون صحب معه العلماء ووسائل التعليم ورغب فى اقامة علاقات ودية مع اهل البلاد بلغت به الى مباشرة مراسيمه — فرمانات — باسم الله الرحمن الرحيم واختياره لنفسه لقب الشيخ الكبير والجلوس ليلة عيد المولد فى الجامع الازهر وهو معمم بعمامة جميلة ويرتدى جبة حريرية واسعة يصغى بخشوع الى السيرة النبوية .

ولقد اشرف بنفسه على خطة تضمن نشر العلم فى مصر فبلغ عدد العلماء الذين رافقوا اسطول الغزو 175 عالما فى مختلف العلوم وكان فى مستودعاته مئات الصناديق مليئة بالكتب والاجهزة مما يكفى لتاسيس جامعة كاملة وكان من بين العلماء الذين صحبوه اطباء وفلكيون وعلماء طبيعيون (2) . ولقد وضع مرافقوه من العلماء بتشويق منه وبالتآزر مع المواطنين **معاجم عربية فرنسية** وانشاوا صحفا جديدة وقاموا بدراسات عن الطاعون الشرقي والتراخوما والتهابات العيون .

وقد جلب نابليون معه **مطبعة عربية** اقامها فى القاهرة وكانت هذه المطبعة ثالث مطبعة وجدت فى بلاد العرب (3) .

لقد ايقظت حملة نابليون على مصر الافكار فنبهت الى سبات الجهل الذى كان مخيما على البلاد فما كاد يطل القرن التاسع عشر حتى بدت تباشير الحركة العلمية فى الديار المصرية فى ايام محمد على الكبير واخذ قبس من نورها يشع فى بلاد الشام ولكن انى لذلك القبس ان يبدد ظلمات الجهل ويقطع دابر الدجالين والمنجمين والسحرة والمشعوذين ويحارب الاعتمادعليهم من ابناء الشعب ما لم تنشأ بيوت العلم ويؤتى بالاطباء ، ذلك ما فعله محمد علي فجلب الاطباء من اوربا وعهد اليهم العناية بصحة جنوده وكان على راسهم ومن المعهم الطبيب الفرنسي كلوت بك الذي استدعي الى مصر سنة 1825 ليتولى رئاسة اطباء الجيش المصري فاشار على بوزاري طبيب محمدعلي باتباع القانون الفرنسيفى أمر الاطباء

---

(1) ومنها معالجة الخناق بشراب التوت ودهن الورد او دهن الخطمية واللبخات كما يطلى حلق الطفل بدهن الورد ومنها معالجة النزلة الصدرية بالحجامة من الظهر وبمغلى الزهورات مع ماء الشعير ، ومنها معالجة الهيضة بالهقط وهو اللبن المجفف والرمان الحامض المشوى بقشره كما يسقى المصاب خليط الثوم بالماء ويوقف الاسهال بدبس الرمان والسماق والشاي الكثيف والخشخاش ومنها معالجة انيرقان بأن يعصر فى انف المصاب قثاء الحمار ومنها معالجة البحة بأكل الكرنب نيئا ومطبوخا .

(2) اتفقوا على ان لا تفسير لاصل العالم الا بما ينسجم مع القوانين الطبيعية دون قوة خارقة وكان نابليون يتردد فى قبول رايهم ويجيبهم : «قولوا ما تشاؤون ولكن ما الذي خلق هذه الاجرام فى الفضاء ؟ » .

(3) اما المطبعة الاولى فوجدت فى لبنان فى القرن السابع عشر وكذلك الثانية فى قرية خنشارة سنة 1724 .

وبانشاء مجلس للصحة يكون بوزاري رئيسا له (1) .

ولقد اشتهر كلوت بتوفيقه فى مكافحة الطاعون فى مصر (2) ، كما استعمل التطعيم ضد الجذري فقل انتشاره فى القطر المصري (3) . وخطر له أن ينشىء **مدرسة طبية** بجانب المستشفى المبحوث عنه فعرض الامر على مسامع محمد على فاستصوبه وأمره أن يشرع فيه ثم انشئت مدرسة طبية بأبي زعبل . وما لبثت أن اعترضته **صعوبة اللغة** فالاساتذة الذين عزم على استخدامهم لا يعرفون العربية والتلاميذ لا يعرفون اللغة الاجنبية فأقام **مترجمين بين المعلمين والمتعلمين** ثم اعترضته صعوبة ثانية جاءت من الزعم بمخالفة الدين الاسلامي للتشريح فتباحث مع رجاله فسكتوا عن التشريح . ولما تغلب كلوت على كل المصاعب عين مديرا للمدرسة الطبية فى مطلع سنة 1827 فاختار لها اساتذة من الفرنسيين والايطاليين.

ولقد سعى كلوت الى **تعريب الكلية** فاختار اثني عشر تلميذا وسار بهم الى باريس ليعودوا اساتذة فى كلية الطب فصحت فراسته فيهم وعادوا الى مصر مزودين بالاختصاص فكانوا اركان تعليم الطب ونهضته فى مصر .

وفى سنة 1837 نقلت المدرسة الطبية من أبي زعبل الى القاهرة (4) وفتحت مدرسة لتعليم القابلات فى الولادة وانشئت مستشفيات كثيرة .

ولقد صحب كلوت ابراهيم باشا الى بلاد الشام فزاردمشق (5) وبيروت (6) وصيدا وعكا وحيفاوجبل الكرمل وتوجه الى الناصرة لما كان الطاعون فيها وزار نابلس وبيت المقدس وغزة وطبب المرضى وابقى له فى الشام ذكرا جميلا .

وصادف ان دعي كلوت بك وهو فى بيروت لعيادة الامير بشير فى سراي بيت الدين فتعرف فيها على بشارة جلخ وكان نبيها عارفا بجملة صناعات منها صناعة تصليح الساعات فدفع كلوت ساعة الى بشارة ليصلحها فصلحها واعادها اليه بعد أن نقش عليها اسم صاحبها كلوت واراد هذا ان يكافئه بالمال فاعتذر باباء فسر منه وقال لبشارة علي بما تشتهى فقال يا سيدي هو ذا ولدي وحشاشة كبدى يوسف اضعه بين يديك راجيا أن تستصحبه معك الى مصر ليتعلم الطب هناك فاستصوب كلوت هذا الراي وعرضه على الامير بشير . ولما كان هذا الامير راغبا فى تقدم بلاده تقدم الى الحكومة المصرية بواسطة

---

(1) وقد استبعد بوزاري المذكور فى باديء الامرمن المجلس المقترح كلوت ، ولما لم تسر الامور فى المجلس على ما يرام اسندت الى كلوت عضوية المجلس فادخل فيه النظامات الصحية الحديثة آنذاك واستعان به على اهل المفاسد الذين وقفوا لاعمال المجلس بالمرصاد وعني بأحوال الجيش الصحية فى السلم والحرب فاوجد مستشفى عسكريا ثم جعله عموميا لجميع المرضى فتكللت اعماله بالنجاح .

(2) كان يموت منه فى جائحة سنة 1830 فى القاهرة وحدها الفا نفس كل يوم فقام هو وتلامذته بمقاومة الطاعون ومعالجة المصابين به الى ان تقشعت غيوم الوباء فأنعم عزيز مصر على كلوت برتبة بك ثم فشا الطاعون سنة 1835 فنهض كلوت وثلاثة من الاطباء لمقاومته ومكث على هذه الحالة باذلا جهده ستة اشهر فانعم عليه العزيز مرة ثانية وذلك برتبة جنرال ولم تكن تعطى لمثله .

(3) كان يفتك سنويا بما يعادل ستين الفا من الاطفال .

(4) ثم اقفلت المدرسة الطبية فعاد كلوت الى فرنسا وبقي فيها الى أن استدعي لاعادة فتحها فعاد الى القطر المصري وبقي فيه حتى سنة 1869 ثم رجع الى وطنه وتوفي سنة 1868 .

(5) وكان فى حاشية ابراهيم باشا فى الشام طبيبان كان لهما مهارة فى الطب القديم وهما الشيخ علي شورى وولده الشيخ عبد الرحمن فدرسا فى الشام بدمشق وطببا فيها وكان عبد الرحمن مجازا من القصر العيني فى القاهرة .

(6) وكان ذلك فى عهد الامير بشير الشهابي الكبير الذي عرف عنه استعمال وسائل وقائية منها تعميمه لقاح الجذرى ومباشرة ذلك بتطعيم عائلته كما استعمل فى مكافحة الطاعون اساليب مجدية منها وضع المصاب فى خيمة خارج قريته ومنع اهل بيته من ترك منزلهم مقدما لهم المساعدات اللازمة للعيش ومنع ايضا اهل القرية الموبوءة من ترك قريتهم وتصدير البضائع منها ومجيء اهل القرى المجاورة السليمة اليها وامره باقفال المحلات الموجودة على طرقات القرى المصابة حتى يزول الداء منها . وكان لهذه التدابير اثرها فى عدم انتشار الطاعون فى لبنان .

كلوت بك ملتمسا منها ان تجيزه بارسال بعض الشباب اللبنانيين الى مصر ليتعلموا فيها الطب فانتخب الامير خمسة شبان من دير القمر وكان فى صحبتهم يوسف بن بشارة المذكور .

ولقد تدعمت فى بلاد الشام اليقظة العلمية بالعلماء والمهندسين والاطباء والزراعيين الذين جلبهم معه ابراهيم باشا الى سوريا فى حملته عليها سنة 1832 فاثروا فى افكار الشعب ونبهوا افراده الى ما هم عليه من تأخر وجهل وكان الاطباء يداوون جرحى الجيش ومرضاه والاهلين .

وفى سنة 1840 م اي بعد خروج ابراهيم باشا من ديار الشام ، سمح بدخول الارساليات الى البلاد السورية ومنها فلسطين فانتشرت فيها بعثات التبشير (1) من انجليزية وفرنسية وامريكية وغيرها تتخذ التطبيب وسيلة للتبشير حتى قل ان تجد رسالية بدون مدرسة أو عيادة طبية على ان المبشرين الفرنسيين سبقوا المبشرين فقد بدأوا عملهم منذ القرن السابع عشر ونشطوا خاصة فى القرن التاسع عشر بعد زوال حكم ابراهيم باشا من بلاد الشام . وكان التطبيب المجاني وتقديم العلاج من اهم عوامل التبشير التي قام بها الغربيون فى بلادنا فبينما كانت الحكومة العثمانية تعجز عن حماية الحجاج كانت البلاد من عمان حتى تبوك ومدائن صالح عرضة **لغزوات المبشرين باسم الطب** كما كانت صحراء سوريا والحجاز مسرحا لهم (2) .

ولقد قدم الى سنة 1842 طبيب انكليزي مع اول بعثة انكليزية سياسية وفدت الى حلب وبدأ يداوي المرضى . وفى حدود سنة 1862 حضر الى حلب المستشرق الامريكي ورتبات وتعاطى مهنة الطب وبقي فيها مدة خمس سنين ثم سافر الى بيروت ليسهم فى تأسيس **فرع الطب فى الكلية السورية الانجيلية** . وكان الدكتور ورتبات فى سني وجوده بحلب قد درس الطب لبعض المتشوقين لطلبه وتحصيله فعلمهم اياه وعلمهم علوما اخرى كالكيمياء والنباتات والحيوانات ومفردات الطب والاقرباذين والطبيعيات وكان منهم الشيخ محمد فائز الكيالي والسيد بكري زبيدة والشيخ الافندي الملقب بالحكيم ، ونصري الحكيم ، والشيخ محمود السنكري ، والياهو حابير ثم تعاطى هؤلاء المهنة الطبية فى بيوتهم واتخذوا فيها عياداتهم يعالجون المرضى ويصرفون لهم الادوية فأفادوا كثيرا واستفادوا كسب عيشهم وبقى منهم اناس حتى عام 1920 (3) .

ولقد بدأت المنافسة بين جمعيات التبشير التى كانت تظهر الدعوة الى الايمان بالله ويبطن مشجعوها تقاسم التركة العثمانية يوم ينتهى نزاع الرجل المريض واعني به دولة بني عثمان واذا قصر الامريكيون عملهم على بيروت الذي كانوا ينوون بدءه فى دمشق على ما يقال (4) فان الفرنسيين كانوا متوغلين فى دمشق وحلب ووجه الفريقان الهمة الى

---

(1) ولا يجوز أن يعزب عن البال انه وجد فى حقبة من هذا الزمن رهبان وقسس كانوا يقومون بالمعالجة فى الاديرة فأدوا خدمات انسانية عظيمة .

(2) وصال المبشرون وجالوا حتى فى المدن وكانت بعثة راهبات مبشرات تطبب مجانا فى مدخل سوق القطن قرب سوق مدحت باشا المعروف بالطريق القديم .

(3) ودليلا على أن هؤلاء المتطببين الذين عالجوا المرضى وخدموا الطبابة فى زمن قل فيه وجود الاطباء المأذونين لم يكونوا دجالين ولا جهلة . اذكر الشهادة الآتية التي كان منحهم اياها الدكتور ورتبات وهي صورة عن النسخة التي لا تزال محفوظة عند الدكتور محمد علي الحكيم حفيد الشيخ محمد الافندي كتبت بالعربي وفيما يلى نصها :

اني انا المحرر اسمي ادناه اشهد بأن السيد محمد الافندي قرا على من الدروس الطبية علم التشريح والفيسيولوجيا والكيمياء وطالع معي ايضا المواد الطبية ، والاقرباذين ، وعلم النباتات واشهد ايضا بأن معرفته العامة بهذه العلوم كانت حسنة ، حرر فى 20 ايلول عام 1866 . واليك سيرة واحد منهم هو الشيخ ابراهيم الخلاصي ، قال فيه العلامة البيطار فى تاريخه ما خلاصته : انتهت اليه رياسة الطب فى عصره ، وكان الخاص والعام معترفا بعمله وقدره ، انفرد بمعرفة الداء من النبض والقارورة ، وللناس عنه حكايات معروفة ، وله مشاركة فى بعض العلوم ، وشعر فى سلك اللطافة منظوم ، توفي فى اليوم السادس من شوال سنة 1255 — هـ 1838 م .

(4) يقال ان النية كانت متجهة الى تأسيس **الجامعة الامريكية فى دمشق** فى حي الميدان وان ظروفا محلية حالت دون ذلك .

فتح المدارس ولم يكن من نتاجها استحداث **كليتي الطب الاميركية** ــ المدرسة السورية الانجيلية ــ **والفرنسية** ــ **كلية الطب اليسوعية** ــ فحسب بل **وكليتي الطب العثمانية في دمشق واستانبول** .

ويعيد البحاثون كتفكهة عن هذه المنافسة ما قاله فان ديك احد كبار مؤسسي الجامعة الاميركية حينما كان في طريقه الى قرية لبنانية لتأسيس مدرسة فيها حيث لقيه صديق وسأله عن رحلته فقال : انني ذاهب الى فتح مدرستين فقال الرجل ضاحكا : «الاتكفي مدرسة واحدة يا دكتور» فأجاب فانديك : «متى فتحت مدرسة فان الجمعية الكاثوليكية ستفتح مدرسة اخرى في نفس القرية» .

ويبدو لنا ان محمدا بن احمد الاسكندراني (1) هو احد متطببي النصف الاخير من القرن التاسع عشر في دمشق ومن اوائل الاطباء المتخرجين من مدرسة طبية رسمية استنتجنا ذلك مما جاء في سيرته وما لمسناه من علم غزير في مؤلفاته .

وقد جاء في مقدمة احدها قوله : كنت منذ زالت عني تمائم الطفولية ونيطت بي عمائم الرجولية ممن شغف بتعاليم الطب ليالي وأياما وانهمك في دراسته على قدر الطاقة سنين وأعواما فنيطت بي خدمة العساكر البحرية في ثغر الاسكندرية المحمية وذلك الى غاية سنة 1256 هـ ــ 1839 م وكنت اذ ذاك ببر الشام فتشرفت بخدمة العساكر السلطانية الى غاية 1258 هـ ــ 1841 م ثم اقمت بدمشق الشام معتنيا بمداواة اهلها الاماثل الاعلام .

وكان من بين الاطباء المتطببين والاطباء الرسميين الدكتور ميخائيل مشاقة : 1800ــ1888 م مؤلف كتاب «مشاهد العيان» (2) ، نشأ علامتنا في دير القمر فتعلم القراءة والكتابة ثم سكن دمياط عند اخواله من آل عنحوري وهناك مال الى دراسة الرياضيات والموسيقى والفلك فلمع فيها . وقد أصيب في شبابه بمرض اقعده خمسة اشهر متوالية فتألم لذلك كثيرا وأحب ان يتعلم صناعة الطب . كان يتتلمذ على كل طبيب اجنبي يأتي الى لبنان من بلاد الشام وحينما زحفت الجيوش المصرية على بلاد الشام ، سوريا ولبنان ، التحق مشاقة بخدمة الامير بشير واستأذن مولاه بموافقة الهيئة الطبية التي كانت بالجيوش المصرية وعلى راسها الطبيب المشهور كلوت فذهب معها الى حمص ودمشق يطبب جرحاها ويعتني بالذين اصيبوا بالطاعون الذي فتك بالحملة فتكا ذريعا وقصد سنة 1845 مصر وتتلمذ في **المدرسة الطبية المعروفة بقصر العيني** بالقاهرة وواظب على دروسها ومستشفياتها حتى نال **لقب دكتور** ثم عاد الى دمشق . وكان الطبيب ميخائيل مشاقة يمارس مهنة الطب (3) .

---

(1) قال فيه اخونا الاستاذ جميل الشطي : «كان المترجم حكيما في كل شيء ، متنوعا فيما يأخذه من المرضى ، يطبب الفقراء ويعطيهم العلاج مجانا توفي عقيما سنة 1306 ــ 1887 وكان طبيبا للحكومة العثمانية في مستشفى الغرباء ودائرة البلدية مدة طويلة ، وكان يجتمع عنده بعض العلماء والوجهاء . تخرج علي الاسكندراني عدد من الاطباء منهم عبدالرحمن شورى وعبد الفتاح كحالة فقد قرأ عليه قانون ابن سينا وكان حاذقا يحسن تشخيص الداء في وصف الدواء . وقد صنع المترجم رسالة في الهيضة سماها : «الازهار المجنية في مداواة الهيضة الهندية» ، وهي رسالة لطيفة جاء في آخرها : ثم طبع هذه الرسالة سنة 1292 هـ ــ 1870 م

(2) وترجع اهمية هذا الكتاب الى انه من المراجع الصحيحة في تاريخ سوريا ولبنان في القرن التاسع عشر .

(3) وصف الاستاذ جرجي زيدان الدكتور مشاقة فقال : انه زاره في منزله بدمشق عام 1883 فشاهده عالما ذا هيبة ووقار يجلله الشيب ويلبس العمامة والجبة وكان يتعصب لزيه الشرقي ، خدم الدكتور مشاقة وطنه العربي الكبير ثم كانت له جولات موفقة في حقول العمل لصالح ومواساة المساكين والمحرومين وله كتب كثيرة في الدين والعلم والفلك والتاريخ وله رسالة في الالحان الموسيقية العربية وقد أحب دمشق حبا عظيما فسكن فيها ينعم بظلالها وكان كثير النباهة والكياسة وشديد المهارة في الاعمال اليدوية وعود يده اليسرى احكام العمل كاليمنى فكان يضرب بها على العود فكانت له احسن معين يوم فلج شطره الايمن وكان بينه وبين المرحوم علامة دمشق ومفتي الشام المرحوم محمود افندي حمزة مذكرات في الرياضيات والمنطق وكذلك بينه وبين الامير عبد القادر الجزائري وكان حبيبا الى جميع الولاة والرؤساء والاعيان واهل العلم والفضل من سائر الملل عاش تسعا وثمانين سنة عيشة صالحة شغل اكثرها بعلاج انفس الناس واجسامهم وكان صابرا في مرضه نحو 18 سنة الى ان اغمض عينيه في دمشق في 8 تموز 1888 . وله من العمر 89 سنة .

الدكتور حسين عودة : هو احد اولاد المتطبب مصطفى اغاعـودة اوفده ابراهيم باشا لدراسة الطب فى القصر العيني حاز شهادة الدكتوراة فى الطب من المدرسة الطبية الخديوية سنة 1291 هـ 1872 م .

الطبيب سليمان الخوري : 1832 م — 1902 م برع فى كثير من المعارف وحصل الطب أولا بنفسه ثم درسه على بعض الاطباء المصريين وفى سنة 1849 اوفد الباب العالي طبيبا من قبله **لامتحان الاطبـاء والجراحين والصيادلة** فى ولايات الاناضول وسوريا فلما وصل الى حمص لم يجد فيها من يحسن التطبيب سوى صاحب الترجمة فاعطاه اجازة بذلك وصدر امر سام من نظارة الداخلية سنة 1294 هـ — 1876 م يعترف به طبيبا قانونيا (1) .

داوود أبو شعر : تخرج من كلية الطب الامريكية ببيروت سنة 1877 وضع كتابا فى الطب جاء فى تقريظه انه كتاب بديع النسق لازم لجميع القراء على اختلاف طبقاتهم يبحث عن الصحة بعبارة بسيطة واضحة مع نصائح عديدة مؤيدة بدلائل الاختبار واتبعه بنشر مقالات طبية عديدة ثم وضع مع زميل له المتخرج ايضا من مدرسة الطب الامركية فى بيروت امين ابو خاطر كتابا آخر فى الطب سمياه كتاب « مغنى اللبيب عن الطبيب » .

الحافظ حسن شاويش 1871 — 1910 : **هو** خالنا حسن بن محمود بن حسن الشاويش **من عائلة** اشتهرت بالتصوف والتجارة نشأ فى حجر والده الحافظ محمود آغا الشاويش فرباه تربية دينية ادت الى حفظه القرآن وتوسعه فى علم الحديث .

اشتهر بين الناس بفضله وعلمه وأدبه وتواضعه كان متقنا للغات التركية والفارسية والفرنسية كما كان ذا اطلاع واسع على اللغة العربية وفقهها وقد اهله الى اتقانها بيئته العلمية ودراسته فى الازهر الشريف .

ولقد تدرت سجاياه الخلقية فى الاستانة واعجب علماؤها بجمعه بين العلوم الدينية والكونية فاعلوا مكانته وصار الكثيرون من رجالات الدولة والدين يتقربون منه لينتفعوا من علمه ويستمعوا الى صوته الرخيم يرتل به القرآن الكريم على القراءات السبع احسن ترتيل وذلك عند افتتاح حلقات الدروس الدينية فى جوامع القسطنطينية خاصة فى شهر رمضان المبارك .

صلاح الدين القاسمي 1305 هـ — 1887 م — 1334 هـ — 1915 م : قال فيه محب الدين الخطيب ما ملخصه : فى مكتب عنبر (2) اكتشفت معادن الخير فى امثال صلاح الدين القاسمي وكان معلم العربية فيه شيخا تركيا أرسلوه ليعلم العربية فى عاصمة العروبة (3) . دخل كلية الطب بعد دراسة ثانوية تعلم فيها

---

(1) سنت الدولة العلية سنة على كل طبيب قصد معالجة المرضى فى بلادها ان يأتي الاستانة ويمتحن فى مجلسها الطبي حتى اذا وجدت معارفه كافية فى علم الطب وعمله اعطته **البراءة السلطانية** مؤذنة له بالتطبيب وقد ذهب الى الاستانة سنة 1843 كثيرون من الاطباء السوريين الذين درسوا الطب وامتحنوا الامتحان المطلوب فأظهروا من البراعة ما اهلهم لنوال الديبلومات السلطانية وهم الاطباء امين ابوخاطر واسكندر بارودي وجرجي باز وابراهيم ثابت وسليم الجريديني وباخوس الحكيم وخليل خير الله وسليم داود واسعد سليم ويوسف سليم وابراهيم صليبي وابراهيم مطر وانطون نوفل وحبيب كحيل واسكندر مشاقة والفرد بابولاني وقد طبب الثلاثة الاخيرون بدمشق نستنتج من ذلك ان الحكومة العثمانية شعرت بنقص الاطباء الرسميين فى بلادها فسمحت لكل من تعاطى الطب او تعلم الطب فى مدارس أجنبية ان يثبت كفاءته فى فحص يقدم الى المجلس الطبي فاذا نجح فيه سمح له بمعاطاة مهنة الطب فى البلاد العثمانية وعاد طبيبا رسميا ويبدو ان عدد الذين تقدموا للفحص أمام المجلس المذكور لم يكن كافيا لذلك اوفد الباب العالى طبيبا من قبله لامتحان الاطباء والجراحين والصيادلة فى ولايات الاناضول وسورية وكان من بين الناجحين فى هذا الفحص طبيبنا المترجم .

(2) مدرسة ثانوية كانت الوحيدة فى بلاد الشام فى عهد السلطان عبد الحميد

(3) كانت العروبة يومئذ عنوانا لمدلول نسبة العرب منذ الف سنة . فى هذا الجو نشأ النابغة العبقري صلاح الدين القاسمي برعاية شقيقه الاكبر العلامة الشيخ جمال الدين القاسمي واخوان له فى حلقة نورانية كانت تسمى حلقة الشيخ طاهر الجزائري انتهت بقيام «جمعية النهضة العربية» سنة 1324 هـ 1906 م وما بعدها كان الدكتور صلاح الدين القاسمي كاتم اسرارها .

التركية والفارسية والفرنسية ومبادىء العلوم الكونية الى جانب ما كان يتلقى من بيته من الدين وعلوم العربية نال شهادة دكتور فى الطب سنة 1914 ثم كان له نشاط علمي وقومى وأدبي تدل على ذلك محاضراته العديدة ومقالاته الكثيرة عن العلم والاجتماع والقومية فى الامم وكان من أوائل من نبهوا الى **الخطر الصهيوني** كما تناول اسلوب المنفلوطي بالنقد فى دراسة طويلة سماها نظرة فى النظرات نظم الشعر فى صباه المبكر جمع آثاره اخوه المرحوم الدكتور مسلم القاسمي ، وقد كان يرى فيه قدوته ومثله الاعلى ، ولكن المنية عاجلته فى السنة التي نال فيها شهادة الطب . توفي صلاح الدين القاسمي فى الحجاز عام 1334 — 1916 ولقد عاش عبقريا سابقا لسنه منذ امسكت انامله القلم ليعبر به عما فى نفسه من اخلاص للعرب ولغتهم وعلمهم وللقومية العربية ودعوة لتأسيس دولة عربية .

ولقد آن لنا اتماما للبحث أن نشير بكلمة عابرة الى كليات الطب فى البلاد العثمانية وعن اسهامها بالنهضة الطبية فى البلاد العربية اسهاما تختلف درجاته من كلية الى أخرى مبتدئين بـ :

كلية الطب العثمانية بالاستانة وكان من الذين تعلموا الطب ثم علموا فن التشريح فيها :

الدكتور يوسف الرامي المولود فى فالوغا سنة 1855 والمتوفى فى سنة الفيل سنة 1916 . وقد وضع الدكتور رامي اكثر **المصطلحات العلمية** التي كانت مستعملة فىكلية الاستانة وقد **اقتبسها من المصطلحات العربية** . وقد تخرج من كليتي الاستانة الطبية والعسكرية عدد كبير من الاطباء السوريين .

كلية الطب الامريكية فى بيروت : اسست سنة 1866 **وبدأ التدريس فى فرعها الطبي سنة 1867 باللغة العربية** واستمر كذلك خمس عشرة سنة ثم **استبدلت باللغة الانجليزية** وقد ادى المتخرجون منها خدمات جلى ولمعوا فى جميع الميادين وكان من بينهم زعيم سياسي واجتماعي كبير هو الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي اغتالته يد آثيمة فحرمت بلاد العرب من حنكته وعلمه وواسع خبرته وفيها تعلم وعلم الدكتور سامي الحداد وقد تميز عن اقرانه بخدمة التراث العربي والكشف عن كنوزه وذخائره واسهامه فى التعريف بابن النفيس الطبيب الدمشقي الذي كشف الادورة الدموية الصغرى .

كلية الطب الفرنسية فى بيروت : بدأ التدريس فيها سنة 1883 باللغة الفرنسية فتخرج منها عدد كبير من الاطباء خدموا البلاد العربية حيث وجدوا خاصة فى لبنان خدمة عظيمة .

هذا واذا كانت **كلية الطب اليسوعية** لم تبدل لغتها الفرنسية فان الآباء اليسوعيين وهم من كبار المسهمين فى تأسيسها عوضوا عن **اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية** فيها بما اوجدوه من **معاجم عربية** ومعاجم عربية اعجمية عديدة وبما طبعوه من **مخطوطات عربية فاسدوا بذلك للتراث العربى وللغة العربية خدمة كبرى .**

كلية الطب العثمانية بدمشق (1) ، باشرت عملها فى دمشق 1903 واستمرت حتى سنة 1918 وتخرج منها 110 اطباء و 152 صيدليا عمل نفر قليل منهم فى الاناضول بينما عمل الباقون فى البلاد العربية خاصة بلاد الشام منها . وقد نقلت كلية الطب العثمانية ابان الحرب الكبرى الى بيروت حيث انتفعت من المدرسة الطبية اليسوعية واستعملت وسائلها الفنية فانتسب اليها عدد كبير من شباب لبنان ، بعضهم لدراسة الطب وبعضهم للتخلص من الخدمة العسكرية وكان لنا من بين هؤلاء صديق استطاع بفضل براعته فى الادب الفرنسي اجتياز بعض الفحوص بسهولة فائقة منها درس النباتات الطبية وكان لا يعلم من ذلك الا القليل وقد سأله استاذ النبات آنذاك اسماعيل حقي عن الورد فسرد له كل ما جاء فى الادب الفرنسي عنه وكان الاستاذ التركي طبيب القلب وموالعا بالادب الفرنسي فأخذ بما حدث ولم ينتبه الى شروده الا بعد حين فقال للطالب هل لك ان تحدثني عن فائدة طبية للورد فأجابه الطالب : يستعمل ماؤه منشطا ويعرف بماء الورد . ولم ينجح الطالب المذكور ببراعته الادبية فى اللغة الفرنسية من مادة النبات الطبي فحسب بل كان الاستاذ المذكور شفيعا له فى باقي المواد وقد تم له النجاح فى اكثرها .

تلك هى سيرة ملخصة عن حالة الطب فى مشرق البلاد العربية فى حكم الدولة العثمانية فما هو حاله فى مغربها : كان الطب فى المغرب العربي كمشرقه

---

(1) استطاع بعض رجال الفكر العربي ان يقنعوا الحكومة العثمانية بتأسيس **كلية طبية بدمشق** تابعة للجامعة العثمانية فأصدر السلطان عبد الحميد سنة 1901 أمرا بانشاء مدرسة طبية تركية اللغة .

يعتمد على تجارب العجائز والحجامة والفصادة وجبر الاعضاء المكسورة ومع ذلك فقد كان دوليل قنصل ملك فرنسا هنري الرابع طبيبا فى البلاط المغربي سنة 1606 . اما الاطباء المغاربة فكانوا قليلين مع ان الاوبئة غير قليلة ومنها الطاعون وكان يظهر ويباؤه مرة فى كل عشر سنين او خمس وعشرين سنة . اما الامراض المنتشرة فكان منها الداء الافرنجي الذي نقله المهاجرون اليهود (1) من الاندلس الى المغرب بعد سنة 1492 ويروى أن عشر السكان كانوا مصابين به وكانت لاسم المرض مرادفات منها مرض الدنيا او المرض الكبير او مرض النساء . وكان من بين الامراض الشائعة داء المفاصل وتضخم الغدة الدرقية والقرع والجرب والجذام وكان المتطببون يعتمدون على كتاب داود الانطاكي «التذكرة والنزهة» وكانت لبعضهم بعض المهارة فى الجراحة الصغرى وكانوا يستعملون فى تضميد القروح الزيت الفليان والقطران الساخن او الحناء والفحم وصمغ الصنوبر وكانوا يرقون النزف بمساحيق مستحطة من القرع الصغير — يقطين — ودقيق الفول فاذا أعياهم الامر خاطوا حافتي الجرح فى شكل منحرف وكان النمل يستعمل بدلا من الخياطة فيسلط على حافتي الجرح ويقطع صدره فيبقى فكاه عالقين وبهما تتم الخياطة .

وكانت تقلع الاسنان المسوسة بادوات خاصة وتداوى أمراض الاذن بالجاوي والزعفران والزيت ، اما العيون فكان للكحالين اساليب مفيدة فى معالجة امراضها وخاصة الرمد منها وكانوا يزيلون غشاوة العين المانعة من الابصار بحذق زائد ، بل وكانوا يتقنون عمليات أصعب من هذه .

وذكر كودار فى وصف المغرب وتاريخه (2) ان الكي اعظم دواء للجراحات بالمغرب والجزائر وان ذلك قد يسفر عن نتائج عجيبة فقد أجريت لجرحى عرب اراد جراحون فرنسيون قطع اطرافهم المجروحة فعولجوا بنجاح الكي بواسطة حديدة محماة .

اما فى التبنيج فكان الاطباء المغاربة يستعملون السيكران وهو عشب مخدر وذكر الدكتور ميكريز فى كتابه الاخبار الصادر عام 1859 بالجزائر أن الاطباء المغاربة كانوا يستخدمون وسائل الايحاء والتنويم فى معالجة مرضاهم واجراء عمليات جراحية لهم بحيث يتوصلون الى درجات شتى من التنويم وذلك بتعليق زجاجة لامعة أمام المريض فينام بينما المباخر ترسل روائح العطر والعود (3) .

وكثيرا ما تستعمل اعضاء بعض الحيوانات لمعالجة الامراض وقد أشار الشيخ عبد الرزاق صاحب كشف الرموز الى خواص بعض اعضاء الحيوانات منها معالجة داء الكلب بمثقال — غرام — من كلية الكلب العقور بمجرد قتله. ونشر بنسيون بحثا حول الطب والاطباء بالمغرب قبل الحماية فى مجلة المغرب الطبي سنة 1951 ذكر فيه أن المصاب بالحصبة كان يوضع فى غرفة يكسى فراشها وجدرانها واغطيتها بلون احمر .

وكان الجدري يظهر كل سبع سنوات تقريبا ويعمد بعض الناس الى التلقيح ضد الجدري بمادة تستخرج من بثور ودمامل العجل والناقة .

وكان الجذام منتشرا بالمغرب وكانت بفاس حارة الجذمى ثم نقلت الى الكهوف بعيدا عن المدينة وقد شاهد الدكتور مارسيت عام 1885 أن سكان هذه الحارات كانوا كلهم اصحاء ويسكن الحارة ما يقرب من ثلاثمائة شخص وفيها مسجد وسجن وسوق وأهلها يتاجرون ويزرعون ولم يكن يسمح لغير المجذومين بالدخول الى الحارات الا اهل مراكش .

وكثيرا ما كانت تتعرض بلاد المغرب لجائحات الكوليرا والتيفوس ويذكر ان الطاعون افقد طنجة سنة 1818 خمس سكانها واما الكوليرا فظهرت فى المغرب لاول مرة عام 1834 فاتخذت المحاجر الصحية للوقاية منها وكانت توجد فى جميع مدن المغرب لجنة صحية ومن ممثليها المحتسب .

وكان فى كل بلد عدد من المتطببين وقد ظل الامر كذلك الى أن فتحت كلية قصر العيني الطبية ابوابها فأرسل عبد السلام العلمي للدراسة فيها وقد وضع فيها كتابا سماه «ضياء النبراس» أورد فيه أساتذته بالقصر العيني الذي أسسه عام 1827 الدكتور كلوط بأمر من الخديوي محمد على وقد وضع ايضا تصنيفا محتصرا لشرح تذكرة الانطاكي سماه ضياء النبراس

---

(1) راجع كودار فى تاريخه ص 461 (نقلا عن كتاب «الطب والاطباء بالمغرب» للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله) .

(2) راجع كودار فى تاريخه ج 1 — 238 .

(3) رينو ص 131 . (نقلا عن كتاب الطب والاطباء) .

في حل مفردات الانطاكي بلغة فاس فطبع فيها سنة 1318 هـ — 1900 م .

ولقد اشار رينو الى اجتماع عقده اربعة من علماء فاس في 8 شوال سنة 1310 هـ — 1892 م لامتحان طبيب مغربي فشهدوا له بذلك بعد اطلاعهم على تضلعه في الطب وقوانينه .

وقد عاش بالمغرب في العهد العلوي اطباء اجانب كما أسست بعثات التبشير منها الفرنسيسكان مستشفى بفاس ومصحات في طنجة وذلك بين 1727 و 1794 واسست الارساليات البروتستانية ايضا في أواسط القرن التاسع عشر مستشفيات بالمغرب

هذا وارى من واجبي اخيرا ان ابين ان اما اتيت على ذكره قد لا يكون وافيا بتمام المقصود ولكنه يؤلف في كل حال محطة انطلاق لبحوث اهم ، ودراسات اتم لذلك عنونته بالنظرات كما سبق أن ذكرت ، اعترافا مني بما يكون فيه من نقائص وهفوات راجيا من كل قارىء لهذه الدراسة أن يعتبر نفسه مساهما في وضعها ومشاركا فيها بارشاده اياي الى مكامن الخطيئات وبيان صحيحها . انه ان قام بذلك اسدى لي وللتاريخ خدمة مشكورة وقدم حسنة مبرورة فيتحول بذلك من ناقد كاشف للعيوب الى متمم للنقائص في بلوغ الهدف المطلوب والسلام .